

المجتمع حسن التنظيم في الفلسفة السياسية الأمريكية

عبد الكريم نوار

باحث في الفلسفة الاجتماعية والسياسية. جامعة إسطنبول

nouarabdelkarim122@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/04/26 تاريخ القبول: 2022/06/07 تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

نقارب في هذه المقالة فكرة مجتمع حسن التنظيم في الفلسفة السياسية الأمريكية، ونركز على أطروحة الفيلسوف الأمريكي المعاصر جون رولز، لبنين مركزية هذه الفكرة في المتن الرولزي. لقد أبدع رولز هذه الفكرة لوعيه بقيمتها المعيارية والوظيفية، فمن جهة المعيار نعتبر فكرة مجتمع حسن التنظيم فكرة ملائمة للمفهوم العمومي للعدالة، أما من ناحية الوظيفة فإنها تساعد على صياغة ذلك المعيار كما تعين الفكرة المركزية المنظمة للتعاون الاجتماعي، وعليه يصعب الحديث على إجرائية العدالة دون استحضار فكرة المجتمع حسن التنظيم، وتطرقنا إلى المعركة الفلسفية التي خاضها ضد التصور النفعي - الذي يعطي الأولوية للعدل على الخير - بالاستناد إلى التركة الفلسفية التعاقدية، من هنا فإن المنجز النظري لجون رولز يعد بمثابة برادغم جديد في الفلسفة السياسية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: المجتمع حسن التنظيم- فكرة الوضع الأصلي- حجاب الجهل -

البنية الأساسية للمجتمع- العدالة-جون رولز.

Abstract:

This article discusses the idea of a well-ordered society in American political philosophy, focusing on the treatise of the contemporary American philosopher John Rawls, for the pupose of showing the pivotality of this idea in Rawls's texts. The latter created this idea with a deep awareness of its normative and functional value. From the normative perspective, we consider the idea of a well-ordered society to be appropriate to the general concept of justice .As for the function, it helps in formulating the norm above mentioned as well as defining the central idea of organizing social cooperation. Moreover, this articles touches upon the philosophical debate Rawls had against the utilitarian conception -that gives priority to justice over good - based on the philosophical legacy of the philosophers of the social contract. Thus it is difficult to talk about justice without invoking the idea of a well-ordered society. Hence, the theoretical achievement of John Rawls is a new paradigm in contemporary political philosophy.

Keywords: well-ordered society - The Basic Structure of Society- Veil of ignorance- Original position- John Rawls - justice.

مقدمة:

يكون المجتمع حسن التنظيم عندما يُحدّد بتصور عمومي للعدالة، وليس حينما تتحدد غايته الأساسية في تحقيق الخير لأعضائه، لهذا تعتبر نظرية العدالة كإنصاف عند الفيلسوف الأمريكي المعاصر جون رولز ردا قويا ضد الأطروحات النفعية عند آدم سميث (adam smith) وجرمي بنتام (Jeremy Bentham) وجون ستوارت ميل (John Stuart Mill)، التي كانت سائدة في الفلسفة السياسية والاجتماعية، في العالم الأنجلوسكسوني. ومن هنا تعد نظرية العدالة التصور الموائم للمجتمع حسن التنظيم، فاستطاعت أن تساهم في إنجاز قفزة نوعية في النظر الأخلاقي والسياسي، ويعتبر مؤلف "نظرية في العدالة" مساهمة متميزة، منقطعة النظير في ميدان الفلسفة السياسية المعاصرة، وهناك من المهتمين من أمثال أمارتيا صن (Amartya Sen) و ميكال ج. ساندل (michael-j-sandel) الذين ذهبوا بعيدا ليربطونه بأعمال كبار الفلاسفة كجون ستوارت ميل، كانط والح. ونجح منجز رولز الفلسفي في بعث آمال جديدة في الليبرالية السياسية، عبر خلق التوازن بين المساواة من جهة والحرية من جهة ثانية، فالعدالة بالنسبة لرولز هي البلمس الذي يشفي الحداثة السياسية من أمراضها المتمثلة في خلق ظواهر اللأعدالة الاجتماعية وتقويض المبحث الأخلاقي من مجال السياسي، وصيغة تعاقدية جديدة هدفها بناء مجتمع منظم بشكل جيد؛ لذلك حاول جاهدا استعادة الأمل الديمقراطي

من خلال نظريته التي تستهدف الأقل حظاً في المجتمع أو الأكثر حرماناً، وإحياء ثقة المواطن في المؤسسات الدستورية. وقد جاءت هذه النظرية في سياق عام يتسم بصراع أيديولوجي حاد بين الفكر الاشتراكي والفكر الليبرالي، الشيء الذي نتج عنه نقاشا فلسفيا عميقا. أما على المستوى الداخلي؛ فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية توترات تمثلت في الصراع العرقي بين البيض والسود، حيث ساد النقاش حول حقوق السود، إضافة إلى النقاش الذي انطرح بين المثقفين الأمريكيين حول مدى عدالة حرب فيتنام وما ترتب عن ذلك من أشكال الاحتجاج وقلق المثقفين من السياسيات التي تنهجها الدولة. وبحسب لنظرية العدالة كإنصاف أنها تمكنت من استعادة المبحث الأخلاقي إلى الفلسفة بعد أن انسحب منه بفعل النقد التشوي للتصورات الأخلاقية، وأبرز ما ميز مقارنة جون رولز الليبرالية أنها استعادت الأفكار الهامة للحدثة السياسية ولعصر الأنوار وهي أفكار العقد الاجتماعي لتطعيمها بمفهومين طريفيين هما الوضع البدئي وحجاب الجهل.

فإذا كانت نظرية العدالة كإنصاف نظرية تعاقدية جديدة (Weber, 2010) (P12) ورد قوي على التصورات النفعية، في سياق اتسم باشتداد التناقضات بين مختلف التصورات السياسية والاقتصادية والفلسفة، وإذا كانت فكرة مجتمع حسن التنظيم تحدّد بتصور عمومي للعدالة وليس عندما تتحدد غايته الأساسية في تحقيق الخير لأعضائه، أفلا يمكن القول بأن هذا التعاقد سيساهم في الانتقال من مجتمع سيء التنظيم إلا مجتمع جيد التنظيم؟ وكيف تساهم فكرة مجتمع جيد التنظيم في امتلاك الأفراد لحسن العدالة؟ وماهي مرتكزات ومبادئ العدالة؟

المحور الأول: نظرية العدالة من حيث هي نظرية في مجتمع حسن التنظيم

من المهم أن أنطلق مما بدأ به رولز كتابه الموسوم بـ "الليبرالية السياسية" (Liberalism politique) عندما قال: "إن تطور الفكر الديمقراطي خلال القرون الأخيرة يبين بوضوح أن لا وجود، الآن، لأي اتفاق حول الطريقة التي يجب أن تنظم بها المؤسسات الأساسية للديمقراطية الدستورية، إذا ما أخذنا بالحسبان أنها يجب أن تحترم الشروط المنصفة للتعاون بين مواطنين أحرار متساوين" (Rawls, 1995, P28) أعتقد أن القول يلخص بشكل مركز المسعى الشامل لفلسفة رولز الذي يتمثل في تأسيس تصور ديمقراطي للمجتمعات المعاصرة، عبر الاستفادة مما راكمته هذه المجتمعات من مكتسبات نظرية، ويمكن أن أعتبر نظرية العدالة محاولة لوضع الأسس التنظيمية لهذا المجتمع الديمقراطي. ولعل ما كتبه جوشوا كوهن في مقاله المعنون بـ "من أجل مجتمع ديمقراطي" يوضح ذلك؛ إذ يقول: "ليست العدالة كإنصاف إلاّ من أجل الديمقراطية في المقام الأول، لأن مبادئ العدالة تتطلب نظاما سياسيا ديمقراطيا" (فريمان، وآخرون، 2015، ص 115) لكن ما هو تصور رولز للعدالة؟

يعرف رولز العدالة بأنها "الفضيلة الأولى للمؤسسات الاجتماعية" (رولز، 2011، ص 29)، من هنا يرى أنه مهما كانت القوانين والمؤسسات جيدة التنظيم لابدّ من رفضها إذا كانت غير عادلة، فالعدالة لا تسمح أن تفرض التضحيات على البعض مقابل أن يتمتع البعض الآخر بالخيرات المحصّلة بوسطة هذه التضحيات، لأن الحقوق المصانة من طرف العدالة غير قابلة للمقايضات السياسية ولا للحسابات التفاضلية للمصالح

الاجتماعية، ويؤكد على أن قبول اللأعدالة يكون فقط حين نريد تجنب لاعدالة أكبر. لكن إذا كانت العدالة كذلك فما الذي نقصد بالإنصاف؟ يمكن أن تأخذ هذه الفكرة عدة أشكال لكن لا بدّ أن تكون النقطة المركزية فيها وجوب الانحياز في تقييماتنا، وأن نأخذ مصالح وشواغل الآخرين بعين الاعتبار، وبالأخص أن نتجنب التأثير بمصالحنا نحن أو أولوياتنا أو اختلافاتنا الشخصية أو آرائنا المسبقة. يمكن بصفة عامة اعتباره مطلب الحياد (صن، 2010، ص102)، ويمثل الإنصاف الفكرة الأساسية وجوهر لنظرية العدالة عند جون رولز فالإنصاف يشير إلى الإجراء الذي يحقق اتفاق الأطراف حول اختيار العدالة، ومنه فإن نظرية العدالة عند رولز مرتبطة أساسا بالإنصاف بحيث أنها تتصور مبادئ العدالة باعتبارها موضوع اتفاق أصلي بين الأطراف الاجتماعية المتساوية في وضعها الأصلي المتساوي والمنصف (ركح، 2019، ص24) يعد الإنصاف إذن قضية جوهرية في نظرية العدالة عند رولز.

1- نقد الحجة النفعية

يمكنني أن أعتبر جون رولز ظاهرة فريدة في الفلسفة السياسية المعاصرة عموما والفلسفة الأمريكية على وجه الخصوص، إذ استطاع أن يتجاوز الفلسفات السائدة في العالم الأنجلوسكسوني، ليؤسس لنظريته من خلال العودة إلى الموروث التعاقدي وأقصد هنا (هوبز، ولوك ورسو) محاولا التأسيس لتعاقد جديد يختلف على ذلك الذي عرفناه مع هؤلاء الفلاسفة؛ يتجلى هذا الاختلاف في كون العقد عند رولز، عقدا افتراضيا، فهو مجرد نظرية فلسفية أخلاقية واجتماعية. في حين أن العقد الاجتماعي هو عقد تاريخي. يقول رولز: "

ما حولت القيام به هو تعميم ورفع مستوى تجريد نظرية العقد التقليدية كما عرضها "لوك" وروسو" وكانط". أتأمل بهذه الطريقة أنه يمكن تطوير النظرية بحيث لا تبقى مفتوحة على الاحتياجات التي أصبحت قدرا لها، علاوة على ذلك، أبدت هذه النظرية أنها تقدم تفسيراً نظامياً بديلاً للعدالة الذي يتفوق على المذهب النفعي السائد في التقليد الفلسفي" (رولز، 2011، ص20).

في مقدمة كتابه الموسوم بـ "نظرية في العدالة" يقول رولز: " خلال الفلسفة الأخلاقية الحديثة أخذت النظرية السائدة شكلاً معيناً من المذهب النفعي" ويرى أنها قد اقترنت بأسماء مفكرين كبار قاموا ببناء بنية فكرية مؤثرة في مجالها. ويذكر في هذا الصدد كل من هيوم وآدم سميث، بنثام وميل وسبب تقديرهم من طرف رولز هو أنهم كانوا قادرين على تأسيس عقيدة أخلاقية، ويلاحظ أن النقد الذي وجه من قبل للنفعية هو نقد ضيق الأفق، فصحيح أن أصحابه قد حاججوا على عدم التوافق بين مضامينه وبين المشاعر الأخلاقية، ولكنهم قد أخفقوا في بناء تصور أخلاقي نسقي وقابل للتطبيق، ونتيجة ذلك نكون حسب رولز: "مضطربين في غالب الأحيان على الاختيار بين المذهب النفعي ولمذهب الحدسي. ويرجح أن نستقر أخيراً على الاشتقاق من مبدأ المنفعة مطوقاً ومقيداً بوساطة قيود حدسية" (رولز، 2011، ص20) وانطلاقاً منه يقول إن هذا ليس سبباً كي لا يحاول نقد هذه النظرية وبناء تصوراً بديلاً عنها.

يبدأ رولز الرد على المذهب النفعي، الذي كان سائداً في العالم الأنجلوسكسوني بقوله: " إن هدفي هو إيجاد نظرية في العدالة تمثل بديلاً عن الفكر النفعي عموماً، وبالتالي

عن جميع الاشتقاقات المختلفة المتفرعة عنه" (رولز، 2011، ص50) يقوم المذهب النفعي على مبدأ أساسي هو تحقيق الرفاه الذاتي بالنسبة للأفراد، كما يسعى المجتمع بدوره قدر الإمكان وراء رفاه المجموعة، ويشرح ويل كميلشكا هذا الجانب من النفعية إذ يرى أنها تحمل أفكارا إغرائية تتمثل في أنها تتلاءم مع فكرتين حدسيتين أساسيتين؛ تتعلق الأولى بأهمية الرفاه الإنساني. والثانية بضرورة أن نحكم على القواعد الأخلاقية من خلال تباعثها على رفاه الانسان، وإن قبلنها ستكون النفعية الاتجاه الذي ننفذ إليه بالضرورة، بهذا المنطق فإن الخير الذي تنشده الاخلاق هو الرفاه، وسيكون السلوك الخلقي حينها ذاك الذي يعظم رفاه كل فرد على حد السواء مع غيره "ومن يعتقد بأن النفعية على صواب سيرى بأن كل نظرية تعارض إحدى هاتين الفكرتين تكون باطلة" (كميلشكا، 2010، ص31).

يسوق رولز انتقادات متميزة للإثنين من صيغ النفعة: المذهب النفعي الكلاسيكية ومبدأ المنفعة المتوسطة. فبالنسبة للمذهب النفعي الكلاسيكي "المتشدد"؛ فقد ظهرت صغته الأكثر وضوحا على يد سيدويك Sedwick . ويحدد رولز الفكرة الرئيسة لهذا المذهب بقوله: "هي أن المجتمع يكون جيد التنظيم، وبالتالي عادل، حين يتم ترتيب مؤسساته الرئيسة بطريقة اكمن من تحقيق الرصيد الصافي الأعظم من الرضا المجموع على أساس جميع الأفراد الذين ينتمون إليه" (رولز، 2011، ص51) ويؤكد رولز على أنها نظرية غائية وهي تعرف الخير بشكل مستقل عن الحق مما يعني شيئين:

أولا، أن النظرية التي تفسر الأحكام المدروسة فيما يتعلق بالأشياء التي تعد خيرا من ثمة تعتبر أن الحق تعظيم للخير.

ثانياً، تمكن هذه النظرية المرء من الحكم على الخير في الأشياء دون الرجوع إلى ما هو حق. ومنه يرى أن النظريات الغائية الكلاسيكية تستمد وضوحها من تقسيم الأحكام الأخلاقية إلى فئتين، الفئة الأولى الموصوفة بشكل منفصل ثم تربط بها الأخرى بواسطة مبدأ تعظيم الخير.

مقابل ذلك يرى رولز أن العدالة كإنصاف تسعى إلى تفسير اعتقادات الفطرة السليمة المتعلقة بأولوية العدالة من خلال عاقبتها على المبادئ التي يتم اختيارها في "الوضع الأصلي"، وتعكس هذه الأحكام التفاضلات العقلانية والمساواة المبدئية للأطراف المتعاقدة. وحسب رولز بالرغم من أن النفعيين يعترفون بهذا، إلا أن عقيدتهم تتعارض مع الإحساس بالعدالة، فهم يرون أن الأوامر الفطرية السليمة بالعدالة والأفكار المتعلقة بالحق الطبيعي لها شرعيتها، ولكنها تابعة كقواعد ثانوية، وينتهي رولز إلى أنه في الوقت الذي تقبل العقيدة التعاقدية الاعتقاد بصحة فكرة أولوية العدالة. يسعى المذهب النفعي إلى تفسيرها على أنها وهم نافع اجتماعياً.

وبعد رصده لمجموعة من التباينات الموجودة بين تصوره وبين التصور النفعي الكلاسيكي، يمكن القول إن ما يذهب إليه أصحاب الرؤية النفعية الكلاسيكية (بنثام، إدجورث وسيدويك) الذين يجادلون بالقول إن خسائر بعضهم قد يعوض مبدئياً بمكاسب الآخرين، وإن ذلك عبارة عن اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية. وعليه فإن التباين الجوهري بين المذهب الكلاسيكي ورولز يتجلى أساساً في اختلاف التصور المؤسس للمجتمع. فرولز يفكر في مجتمع جيد التنظيم كمشروع للتعاون من أجل المنفعة المتبادلة،

ومنظم بواسطة مبادئ يختارها أشخاص في وضع بدئي يكون منصفاً. ويفكر رولز في إدارة كفاءة للموارد الاجتماعية لتعظيم الرضا لنظام الرغبة الذي يتم بناؤه من قبل مراقب. ويعلق مايكل ساندل على هذه القضية بقوله: "إن العدالة هي المعيار الذي يتم به التوفيق بين القيم المتعارضة والتسوية بين التصورات المتنافسة حول الخير حتى وإن لم يكن الحل نهائياً دائماً" (ساندل، 2009، ص59) ومن حيث هي كذلك دائماً، لابد أن تكون للعدالة بعض الأولوية مقارنة بقيم وتصورات الخير هذه.

2- فكرة المجتمع حسن التنظيم (well-ordered society)

يمكننا أن نتصور فكرة المجتمع حسن التنظيم لدى رولز مجسدة في مجتمع منظم بكفاءة بواسطة مفهوم العدالة وهي فكرة هدفها تعيين الفكرة المركزية المنظمة للمجتمع. يوضح رولز معنى هذا المجتمع في ثلاثة أفكار:

أولاً: هو مجتمع يقبل كل واحد من أفراد المفهوم السياسي للعدالة، وهو الأمر الذي قصده رولز بالمفهوم العام للعدالة، وبناء عليه، يعرف الناس كل ما يودون أن يعرفوا شريطة قبولهم بشكل جماعي بتلك المبادئ أي أن يكون هناك اتفاق عام حولها.

ثانياً: يرى رولز أن ما تتضمنه فكرة التنظيم ذي كفاءة بواسطة مفهوم عام للعدالة، ويعني المؤسسات السياسية والاجتماعية الرئيسية، وطريقة ترابطها في نظام تعاوني أو ما يسمه "بالبنية الأساسية للمجتمع"، وهي فكرة ذات معرفة عمومية، ويعتقد بقدرتها على تحقيق مبادئ العدالة.

ثالثا: يرى رولز أن ما تتضمنه فكرة التنظيم ذي كفاءة، فكرة أن للمواطنين حسا بالعدالة، يمكنهم منه أن يفهموا ويطبقوا مبادئ العدالة المفهومة من العموم، والعمل وفقا لذلك في معظم الأحيان كما يتطلب وضعهم في المجتمع (رولز، 2009، ص 97).

يعتبر رولز المجتمع حسن التنظيم فكرة مثالية على نحو واضح، ويرجع سبب إبداعه لهذه الفكرة إلى قدرتها وكفاءتها على أن يلائم مفهوم العمومي للعدالة، هذه الملاءمة توفر معيارا يفيد في مقارنة المفاهيم السياسية للعدالة، وفكرة المجتمع حسن التنظيم على صياغة ذلك المعيار وأيضا على تعيين الفكرة المركزية المنظمة للتعاون الاجتماعي. ويوضح رولز أن لفكرة المجتمع حسن التنظيم معنيان: المعنى العام (سياسي) وهو الذي سبق أن تطرقنا إليه؛ أي أن يكون المجتمع منظما بواسطة مفهوم عام للعدالة. ومعنى خاص؛ وذلك عندما يشير إلى مجتمع حسن التنظيم الذي يقبل فيه جميع أعضاء المجتمع بمفهوم سياسي للعدالة، ويعرفون أن الآخرين يقبلون مفهومها ذاته.

ويلاحظ رولز أن المجتمع حسن التنظيم الذي يقبل كل أعضائه العقيدة الشاملة ذاتها هو مجتمع مستحيل الوجود في المجتمع الديمقراطي. غير أنه يمكن للمواطنين-حسب رولز- ذوي العقائد الشاملة المختلفة أن يقبلوا مفاهيم سياسية للعدالة.

عموما يمكنني القول، إن الأفراد في المجتمع حسن التنظيم يمتلكون حسا فعلا بالعدالة، وهذا الأمر سيمكنهم من معرفة كيفية تطبيق مبادئ العدالة على الحالات الخاصة. بهذا الشكل يسمح المجتمع الحسن التنظيم لرولز بتحديد الإطارين السياسي والاجتماعي اللذين يندمج فيهما العدل بالخير، وهذان الإطاران المشكلان من البنية الأساسية للمجتمع

تحكمهما وتسيرهما مبادئ العدالة، ولما كانت المؤسسات تتصف بالعدالة وفق هذا التصور، فانه يكتسب معنى العدالة المتوافق مع هذا المجتمع وكذلك الرغبة في الدفاع عن المؤسسات (ربح، 2019، ص30). فمجتمع حسن التنظيم هو ذلك المجتمع الذي يعيش فيه الأفراد الأحرار المتساوين شركاء، ومن خلاله يدرك كل واحد منهم أن نجاح الآخرين يعد ضروريا ومكملا لنجاحه هو ذاته.

ولا يتحدث رولز عن فكرة المجتمع حسن التنظيم في انفصال مع فكرة الأشخاص الأحرار المتساويين التي يقصد بها، جماعة من الناس ينتمون إلى وطن واحد ولهم حقوق سياسية ومدنية، ومنخرطون في التعاون، هؤلاء الأشخاص يتمتعون بما أسماه رولز " قوتين أخلاقيتين" هما القدرة على الحس بالعدالة، ومعناها القدرة على الفهم والتطبيق والعمل وفق مبادئ العدالة، والقدرة على تحصيل مفهوم الخير ومراجعتة ومتابعته العقلانية. وهاتان القوتان هما اللتان تجعلان الأشخاص يحززون القدرات المطلوبة للانخراط في نظام التعاون الاجتماعي القائم على التبادل، يقول رولز: "إننا باستعمالنا مفهوم الأشخاص الأحرار المتساويين نقوم بعملية تجريد للملامح المختلفة للعالم الاجتماعي" (رولز، 2009، ص94).

البنية الأساسية للمجتمع: (The Basic Structure of Society)

ينطلق رولز في حديثه عن البنية الأساسية للمجتمع من القول: "إن إحدى السمات الرئيسية للعدالة كإنصاف هي اعتبارها البنية الأساسية الموضوع الأول للعدالة السياسية وهي بفعل ذلك جزئيا، لأن آثار البنية الأساسية على أهداف المواطنين وطموحاتهم، وحالتهم، وأيضا على فرصهم وقدرتهم على الاستفادة منها، وهي آثار منتشرة

وحاضرة من بداية الحياة. لذا، فإن تركيزنا الكلي على البنية الأساسية على أنها موضوع العدالة الأساسية" (رولز، 2009، ص99) من هنا يتضح لي أن رولز يؤكد على أن المادة الأولية للعدالة هي البنية الأساسية لمجتمع حسن التنظيم، التي يطلقها على مجموعة من المؤسسات الاجتماعية كالمؤسسة الدينية والمؤسسة التعليمية والمحاكم، البرلمان والأسرة.

ويمكن التفكير في المؤسسة بطريقتين: أولاً؛ كشيء تجريدي، أي كشكل محتمل من السلوك يعبر عنه بواسطة نظام من القواعد. وثانياً؛ يمكن التفكير فيها، إدراكاً لتفكير وسلوك أشخاص معينين في زمان معين ومكان معين ولأفعال المحددة من خلال هذه القواعد (رولز، 2011، ص86). ذلك لأن المؤسسة توجد في زمان معين ومكان معين حين تنفذ الأفعال المحددة بواسطتها بانتظام طبقاً لفهم عام مفاده أن نظام القواعد المحدد للمؤسسة يجب إتباعه، فمؤسسة البرلمان على سبيل المثال تحدد بواسطة نظام القواعد، هذه القواعد توضح اشكالاً معينة للفعل تتراوح من عقد جلسة البرلمان إلى التصويت على قانون.. وكل شخص مشارك فيها يعرف هذه القواعد ويعلم أن الآخرين يعرفونها.

إذن يمكنني أن أقول، إن البنية الأساسية للمجتمع تؤلف الطريقة التي تتلاءم بحسبها المؤسسات السياسية والاجتماعية الرئيسية فتدخل في نظام تعاون اجتماعي، وطريقة تعيينها الحقوق والواجبات الأساسية، وتنظيمها الفوائد التي تنتج من التعاون الاجتماعي. وعليه يمكن اعتبار البنية الأساسية للمجتمع الأساس السياسي والاقتصادي للمجتمع الذي تقوم عليه التفاعلات الاجتماعية التي من خلالها يضطر الأفراد إلى اختيارات معينة مما هو مطروح للتفضيل وأن يواجهوا الإكراهات التي تحدد هذه الخيارات، ومن بين الأمثلة الدالة

على هذه المؤسسات يذكر رولز الدفاع عن حرية التفكير، وجود أسواق تنافسية وكذا الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج (ربح، 2019، ص35).

ويوضح رولز، أن العدالة كإنصاف ليست عقيدة شاملة دينية، أو فلسفية، أو أخلاقية كما لا تعتبر تطبيقاً لمثل تلك العقيدة على البنية الأساسية للمجتمع لأن الفلسفة السياسية ليست تطبيقية بهذا المعنى بل لها سماتها ومشاكلها التي تميزها. أما العدالة كإنصاف فيراها رولز باعتبارها مفهوم سياسي لحالة خاصة للبنية الأساسية لمجتمع حسن التنظيم.

فكرة الوضع الأصلي (Original position)

يعرف رولز الوضع الأصلي باعتباره "الوضع الاجتماعي المبدئي المناسب الذي يضمن أن تكون الاتفاقات الأساسية التي يتم التوصل إليها، فيه، منصفة وهذه الحقيقة هي التي تقود إلى التسمية "العدالة إنصافاً" (رولز، 2011، ص121). يتضح من خلال هذا التعريف أن رولز يذهب إلى أن الأشخاص العقلانيين في ظل هذا الوضع يقومون باختيار مبادئ العدالة ويتفقون عليها، الشيء الذي يعني أن هذا الوضع هو وضع تعاقدى بامتياز يربط نظرية العدالة بنظرية الاختيار العقلاني. ومن المعقول حسب هذا الموقف أن نفترض أن الأطراف في الوضع الأصلي متساوون أي أن للجميع نفس الحقوق في اختيار المبادئ؛ كما يمكن أن يقدم كل شخص له اقتراحاته وحاججه عن أسباب التي تجعل الآخرين يقبلونها.

ويؤكد رولز أن الغرض من هذا الشرط هو تحقيق المساواة بين جميع الأطراف، باعتبارهم أشخاص أخلاقيين لهم تصور عن الخير والقدرة على الإحساس بالعدالة، حيث

يقوم أساسا على التماثل في هذين الجانبين (رولز، 2011، ص48). ففي الوضع البدئي لا يتم إعطاء درجات قيمة تراتبية لأنظمة الغايات، وذهب رولز إلى طرح افتراضا مهما مفاده؛ أن كل شخص له القدرة المطلوبة لفهم المبادئ المتبناة والتصرف على أساسها. وعليه فإن مبادئ العدالة مبررة لأنه سيتم الموافقة عليها في هذا الوضع البدئي من المساواة، وشدد رولز على أن الوضع الأصلي افتراضي صرف، يرى صموئيل فريمان أن الوضع الأصلي يضيف أهمية لا على الغايات الموجودة، بل على حرية الناس وقواهم الأخلاقية في صوغ غايتهم وتصويبها. لذا، فإن شروط الوضع الأصلي تشجع نوعا من التباين أو الاختلاف بين تصورات الخير، ومن هذه الناحية فإن الوضع الأصلي يقوم، بالضرورة، على مبادئ ليبرالية بامتياز تضمن المساواة في الحريات الأساسية (فريمان، وآخرون، 2015، ص30).

تأسس على ما تقدم، يمكن القول، إن رولز يحاول انطلاقا من فكرة الوضع البدئي أن يؤسس لتعاقد اجتماعي جديد على أرضية مبادئ العدالة، وتميز هذا التعاقد بكونه افتراضيا على عكس التعاقد الاجتماعي الكلاسيكي الذي جاء كل من هوبز، لوك وروسو. الذي يأخذ طابعا تاريخيا.

3- حجاب الجهل (Veil of ignorance)

يعد جون هارساني (Harsanyi) أول من وظف فكرة حجاب الجهل في دراسة علمية، قبل أن تلقى هذه الفكرة اهتمام جون رولز فحوّلها إلى الفلسفة السياسية (ربح، 2019، ص06). ومما لا ريب فيه أن غاية هذه الفكرة هي إعداد إجراء منصف بحيث تتفق عليه جميع الأطراف، والهدف هو استخدام الفكرة المتعلقة بالعدالة كأساس

نظري، يرى رولز أنه علينا إبطال الآثار الخاصة بظروف طارئة معينة تضع الأشخاص في خلافها وتدفعهم إلى استغلال الظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصلحتهم الذاتية، ومن أجل القيام بذلك يفترض أن الأطراف يتموضعون خلف حجاب الجهل (رولز، 2011، ص 181) بحيث لا يعرفون كيف ستؤثر المبادئ التي سيختارونها على حالاتهم الخاصة وهم مضطرون لتقييم المبادئ كلية على اعتبارات عامة.

ينطلق جون رولز من فرضية مفادها أن الأطراف لا يعرفون أنواعا محددة من حقائق في هذا الوضع، فلا أحد منهم يعرف موقعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كما لا يعرف نصيبه من التوزيع، ولا يعرف شيئا عن ذكائه وقوته، ولا عن تصوره للخير، ولا يجب أن يعرف الأطراف المعلومات الخاصة التي ستسبب النزاع بينهم، لأن هذا الجهل هو الذي سيساعدهم في اختيار مبادئ يتفقون عليها. لكن الحقيقة التي سيعرفها الأطراف هي أن وضعهم خاضع لظروف العدالة، ولذلك يفترض أنهم يعرفون الحقائق العامة حول المجتمع البشري؛ أي أنهم يفهمون المسائل السياسية والمبادئ المتعلقة بالنظرية الاقتصادية، كما يعرفون أساس التنظيم الاجتماعي، والقوانين الخاصة بالسيكولوجيا البشرية ففي هذه الحالة يصعب الحديث عن حجب المعلومات العامة فالأطراف يمكنهم أن يطلعوا على القوانين والنظريات العامة.

لقد كان رولز واضحا لما صرح بأن فرض القيود على المعلومات الخاصة في الوضع الأصلي ذات أهمية كبيرة، إذ لا يمكن التوصل إلى نظرية محددة في العدالة بدون ذلك يقول رولز: " سوف يتوجب علينا القناعة بصيغة غامضة تنص بأن العدالة هي ما يتسم الاتفاق

عليه دون تمكننا من قول أي شيء عن جوهر الاتفاقية بحد ذاتها" (رولز، 2011، ص186). ومن هنا ونفهم أن حجاب الجهل هو الذي يجعنا نتفق حول تصور معين للعدالة، لكن يصعب تصور هذا الاتفاق بدون فرض القيود على المعلومات الخاصة. عموما يمكن القول، إن الأطراف في الوضع الأصلي، وبفضل حجاب الجهل، يمتلكون جميع المعلومات العامة، بحيث لا وجود لمعرفة عامة معلقة أمامهم لأن تصور العدالة يتعلق أساسا بالشروط المتعلقة بالشاركة الاجتماعية، وهي بدورها تستلزم التفاهم حول مبدأ العدالة، لكن من جهة أخرى على الأطراف ألا يعرفون في هذا الوضع أي شيء عن طبقاتهم ولا عن عرقهم ولا عن دينهم، كونهم وكلاء عقلانيون صارمون.

الخو الثاني: مبادئ العدالة كإنصاف

تعتبر صياغة مبدأ العدالة عملية مفتوحة على إمكانات تعديلية مستمرة، فهما ليسا مجرد قواعد صورية، وإنما أوامر فعلية ذات مضامين وكلفة محددة، وهذا ما يجعلهما معلما حقيقيا يمكن اللجوء إليه لأجل تحديد مدى عدالة بنية أساسية من عدمها. ومن الواضح أن رولز يسلك في هذا الصدد مسلكا كانطيا، فهذا الأخير ينطلق أيضا من صور الأمر القطعي لكي ينتهي إلى استخلاص مضامينه، وهذه المضامين لا تتأسس انطلاقا من معطيات واقعية، وإنما من كيفية خاصة في التبرير تجعل هذه المضامين الأكثر تناسبا مع انتظارات وتوافقات المواطنين (هاشمي، 2014، ص87) وينطلق رولز، عند اقتراحه مبادئ العدالة، من السؤال التالي: ما مبادئ العدالة الأكثر ملاءمة لتعيين الحقوق الأساسية والحريات وتنظيم ظواهر اللامساواة؟ بأي مبادئ يمكن جعل الفروقات في نظرنا العامة إلى

الحياة مشروعة وغير متناقضة مع فكرة المواطنة الحرة المتساوية في المجتمع منظورا إليه كنظام تعاون منصف؟ يقترح رولز المبدأين الذين سيتم الاتفاق عليهما في الوضع الأصلي وهما على الشكل التالي:

أولاً: أن يحصل كل شخص على حق متساوي في التخطيط الأكثر اتساعا من الحريات الأساسية المتساوية المتوافق مع مخطط مماثل من الحريات للآخرين.

ثانياً: "يجب ترتب حالات اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بحيث تكون (أ) متوقعة بشكل معقول على أنها لمصلحة كل شخص (ب) الالتحاق بالمواقع وبالمناصب مفتوحا للجميع" (رولز، 2011، ص 181).

يلح رولز على أن نتعامل مع هذه المبادئ بشكل تسلسلي بحيث يسبق الأول الثاني الأول الثاني، وهذا الترتيب يعني أنه لا يمكن تبرير انتهاكات الحريات الأساسية المتساوية المصانة بوسطة المبدأ الأول، من خلال المنافع الاقتصادية والاجتماعية. فهناك حريات يراها رولز أساسية منها حرية الضمير، حرية الاتحاد، وجموع الحقوق والحريات التي احدها حرية الشخص (بما فيها حرية الحركة وحرية العمل، اختيار المهنة والحق في الملكية الشخصية) لكن هناك مجموعة من الحريات الغير الخاضعة لهذا المبدأ لأنها بالنسبة للرولز ليست أساسية، مثل: حرية امتلاك أنواع معينة من الملكيات (مثل وسائل الإنتاج) وحرية التعاقد كما تفهم من خلال عقيدة الحرية الاقتصادية (رولز، 2011، ص 94)، يصف رولز حريات المبدأ الأول بالأساسية لأنها، أخلاقيا، أهم بالنسبة إلى حرية المواطنين الديمقراطيين، مقارنة بنظيرتها غير الأساسية المذكورة وهذا يعني عند رولز: أولاً، أن الحريات الأساسية

ضرورة لمتابعة الطيف الواسع من تصورات الخير. ثانيا، تبقى الحريات الأساسية جوهرية بالنسبة إلى ممارسة و"تطوير القوتين الأخلاقيتين" [العدالة والعقلانية] اللتين تحدان تصور الشخص الكامن في عمق نظرة رولز البنائية. وهاتان القوتان الأخلاقيتان هما القدرة على امتلاك حس العدالة؛ أي القدرة على فهم مبادئ العدالة، وتطبيقها، والتصرف بموجبه والعمل من أجلها. ويرى القوى الأخلاقية من منطلقات كانطية بوصفها القدرات الجوهرية اللازمة للقيام بدور الوكالة الأخلاقية والعقلانية (فريمان، وآخرون، 2015، ص19).

أما المبدأ الثاني فإنه يشدد كما يقول رولز على انتفاع كل شخص من حالات اللامساواة المسموح بها في البنية الأساسية للمجتمع حسن التنظيم. يطبق المبدأ الثاني دائما ضمن مجموعة مؤسسات تحقق متطلبات المبدأ الأول وهي المؤسسات التي ستقوم بذلك في مجتمع حسن التنظيم وتضمن الحرية المنصفة تؤمن للمواطنين المتماثلين في المواهب والدوافع فرصا متساوية، ويقسم رولز هذا المبدأ إلى مبدئين هما مبدأ الكفاءة ومبدأ الفرق.

أ- مبدأ الكفاءة:

يرى رولز أن هذا المبدأ معدل على البنية لأساسية للمجتمع، وهو يفهم كنظام تعاون اجتماعي مفتوح؛ فهو مبدأ يفتح المواقع لجميع أولئك القادرين والراغبين للمنافسة من أجل هذه المواقع، ويعتقد رولز أن تخصيص الحقوق والواجبات بهذه الطريقة ينتج مخططا يوزع الثروة والدخل، السلطة والمسؤولية، بطريقة منصفة مهما كان هذا التوزيع.

ويقر رولز بأن ترتيب الحقوق والواجبات في البنية الأساسية يعد كفوًا إذا كان فقط من المستحيل تغيير القواعد، إلى إعادة تعريف مخطط للحقوق والواجبات بحيث نرفع

التوقعات لأي شخص التمثلي دون أن نحفض في نفس الوقت التوقعات لبعض الأشخاص التمثليين؛ بمعنى عند تغير البنية الأساسية من غير المسموح لنا انتهاك مبدأ الحرية المتساوية أو متطلب المواقع المفتوحة، وما يمكن تعديله هو توزيع الدخل والثروة والطريقة التي من خلالها يمكن لأولئك الذين في مواقع السلطة تنظيم أنشطة تعاونية بالاتساق مع قيود الحرية والنفاذ إلى المناصب، وربما تسوية توزيع هذه الخيرات الأولية لتعديل التوقعات لأفراد تمثليين ويعد ترتيبا ما للبنية الأساسية كقوة حين لا يكون هناك طريقة لتغير هذا التوزيع لرفع إمكانات النجاح لأحد دون تخفيض إمكانات الآخرين.

ب- مبدأ الفرق:

يؤكد أن مبدأ الفرق متوافق مع مبدأ الكفاءة، فحين يتحقق الأول، من المستحيل جعل أي شخص تمثلي واحد أفضل حالا دون جعل آخر أسوأ حالا (رولز، 2011، ص114)، وهو الشخص التمثلي الأقل انتفاعا الذي علينا أن نعظم توقعاته، هكذا تعرف العدالة بطريقة متسقة مع الكفاءة، على الأقل حين يلي المبدأ. إذن حسب رولز فإن مبدأ الفرق يستعيد الالتئيد المتعلق بمبدأ الكفاءة من خلال انتقاء وضع معين من خلاله يجب الحكم على المساواة الاقتصادية. ذلك بافتراض بواسطة الحرية المتساوية وتكافؤ الفرص المنصف. وتعد التوقعات الأعلى أولئك ذوي الوضع الأفضل عدالة إذا فقط كانوا من مخطط يحسن توقعات للأعضاء لأقل انتفاعا في المجتمع "إن الفكرة الحدسية هي أنه يجب على النظام الاجتماعي ألا يرسخ ويحمي إمكانات النجاح لأولئك لأفضل حالا إذا كان القيام

بهذا المنفعة أولئك الأقل حظاً" (رولز، 2011، ص 110) يتضح أن حالة المساواة الاجتماعية يجب أن تخدم مصالح الأقل حظاً في الفرص بهذا.

هناك اتجاه من خلاله ينتفع كل شخص عند تلبية مبدأ الفرق، إذا إن الشخص التمثلي الذي هو أفضل حالا في مقارنة المكاسب بأي من الاتجاهين من خلال المنافع المقدمة له، ومكاسب الشخص الذي هو أسوأ حظاً من خلال المساهمات التي تقدمها حالات اللامساواة هذه. قد لا تتوافر هذه الشروط بالطبع. لكن في هذه الحالة يجب ألا يحصل أولئك الذين في أفضل حالاً على المنافع المتاحة للأقل امتيازاً، بل يجب علينا في نظر رولز تعظيم التوقعات لأولئك الأقل انتفاعاً.

خلاصة:

بناء على كل ما سبق، إن فكرة مجتمع حسن التنظيم تعتبر فكرة مركزية في نظرية العدالة عند جون رولز، وهي فكرة مثالية على نحو واضح، ويرجع سبب إبداعه لها إلى قدرتها وكفاءتها على أن تلائم المفهوم العمومي للعدالة، هذه الملاءمة توفر معياراً يفيد في مقارنة المفاهيم السياسية للعدالة، وتساعد فكرة المجتمع حسن التنظيم على صياغة ذلك المعيار وأيضاً على تحديد الفكرة المركزية المنظمة للتعاون الاجتماعي. فلا يمكن أن تتحقق العدالة، إجرائياً إلا بتحقيق جميع جوانبها والاعتماد على مركزاتها بهدف الاتفاق على مبادئها. فالعدالة باعتبارها الفضيلة الأولى للمؤسسات الاجتماعية لا يمكن الحديث عنها إلا بوجود مجتمع جيد التنظيم والذي يتكون من أشخاص أحرار ومتساوين. وهؤلاء الأفراد الأحرار يتفقون على مبادئ العدالة في وضع أصلي لا يعرفون فيه عن أنفسهم ولا عن

الآخرين أي شيء، حيث تنتفي الانتماءات العرقية والطبقية والدينية عبر حجاب الجهل، ورولز لا يفكر في العدالة إلا في ظل المجتمع الديمقراطي.

المراجع والمصادر المعتمدة:

1. جون رولز (2011)، نظرية في العدالة، ترجمة ليلى الطويل، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.
2. جون رولز (2009) العدالة كإنصاف إعادة الصياغة، ترجمة حيدر الحاج إسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
3. أمارتيا صن (2010)، فكرة العدالة، ترجمة مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
4. ج مايكل ساندل (2009)، الليبرالية وحدود العدالة. ترجمة؛ محمد هناد، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت.
5. صموئيل فريمان، وآخرون (2015)، اتجاهات معاصرة في فلسفة العدالة (جون رولز نموذجاً)، ترجمة؛ فاضل جتكر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.

6. ويل كيملشكا (2010)، مدخل الى الفلسفة السياسية المعاصرة، ترجمة منير

الكشوو، دار سيناترا، تونس.

7. عبد العزيز ركح (2019)، الشرعية الديمقراطية من التعاقد إلى

التواصل هابرماس في مواجهة رولز، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،

بيروت.

8. عبد العزيز الخال (2016)، البعد العلماني لفكرة حجاب الجهل عند رولز، مؤمنون

بلا حدود، لرباط.

9. John Rawls (1995), **Liberalism politique**, Catherine Audard (trad.), Presses universitaires de France, Paris.

10. Eric T. Weber (2010), **Rawls, Dewey, and constructivism: on the epistemology of justice**, Continuum International Publishing Group, London.

11. Lewis Schaefer (2007), David, **Illiberal justice: John Rawls vs. the American political tradition**. University of Missouri Press, Missouri: